امة التشك سلوفاك

والحرب

لم تردد الألسن في هذه الحرب ذكر امة من الامم الصغرى اكثر من ذكر امة التشك سلوفاك اذا استثنينا البلجيك وبولندا وصربيا. وقد كانت بلادها قبل الحرب جزءا من امبراطورية النمسا والمجر وكانت بلاد التشك تعرف باسم بوهيميا وموراڤيا وسليزيا فلما تقطعت اوصال الامبراطورية وانكرتها القبائل المنتمية اليها ونادت باستقلالها انضم التشك الى السلوفاك وعرفوا باسم التشكوسلوفاك او التشك سلوفاك

وقد خدمت هذه الامة غاية الخدمة في الحرب اعظم خدمة سواء في روسيا وسيبيريا فانها اولاً دون تأليف جيش من اسرى الحرب الالمان والنمسويين يساعد المانيا على ترسيخ قدمها في روسيا. وكانت منها ثانياً نواة قد يجتمع حولها جيش روسي وطني يكون لهُ شأن عظيم في تاريخ اوربا

اصل هذه الامة صقلبي او سلافي وهي اكثر الصقالبة شبهاً بامم اوربا الغربية في اخلاقها وعاداتها . اما التشك فيقطنون بوهيميا وموراڤيا وسليزيا كما تقدم القول . واما السلوفاك فيقطنون سلوفاكيا من اقطاعات المجر . وعدد نفوس هذه الامة نحو ٩ ملايين منهم الثلاثة الارباع من التشك والربع من السلوفاك . والقبيلتان من اصل واحد ولغتاها متشابهتان كل التشابه حتى ان من يعرف اللغة البوهيمية (لغة التشك) يستطيع قراءة الكتب والجرائد المطبوعة بالسلوفاك احسن مما يستطيع رجل انكليزي قراءة شعر برنز(١) مثلاً

والتشك ارقى من السلوفاك بكثير في السياسة والصناعة والمستوى العقلي ولهم تاريخ يشهد لهم بالبسالة والمروءة . اما السلوفاك فلم يكن لهم تاريخ مستقل منذ دانوا للمجر في اوائل القرن العاشر

علاقة بوهيميا بالمانيا

ان الذي ينظر الى الخارطة يتحقق صدق قول بسمرك ان الدولة التي تحكم

(١) شاعر اسكتلندي في شعره كثير من الاصطلاحات الاسكتلندية بحيث يتعذر فهمه الا على المتضلعين من اللغة الانكليزية .

بوهيميا تحكم اوربا كلها . فان بوهيميا صعيد في قلب اوربا وهي كسفين زجّ بين المان النمسا والمانيا . وقد قضى مركزها الجغرافي بان يقوم نزاع بينها وبين المانيا لا بدّ منهُ . والتاريخ يخبره بان الصقالبة كانوا يقطنون في عهد شرلمان النصف الشرقي من المانيا الحالية . ومرّت قرون والجرمان يبذلون جهدهم في جرمنة الصقالبة الذين الى الشرق منهم فتاخموا ببغيتهم هذه حتى بلغوا حدود بوهيميا فوقفوا عندها ولم ينالوا منها منالاً

وكان البوهيميون قد أسسوا حكومة وطنية عزيزة الجانب راقية في الآداب والمعارف وهم اول الامم الشمالية التي تنبهت من سبات القرون الوسطى وتفضت عنها غبار الكسل فاعلن جون هس حرية الضمير والاجتهاد في تفسير التوراة قبل لوثر باكثر من مئة سنة فحذت الامة البوهيمية كلها حذوهُ وكان لتعاليمهِ اعظم تأثير في تضامّ اجزائها واصلاح لغتها

اتحاد بوهيميا بالنمسا

وفي سنة ١٥٢٦ حدثت حادثة من اعظم حوادث التاريخ البوهيمي . ذلك ان مجلس الامة في بوهيميا اختار ملكاً من آل هبسبرج اسمهُ فرديناند فباتت بوهيميا بهذا الاختيار جزءاً غير منفصل عن النمسا . وما فتئ ملوك هبسبرج من بدء هذا الاتحاد يثابرون على سياسة واحدة من مآلها التضييق على المجلس البوهيمي وحصر حقوقهِ في ايديهم . ووجهوا همّاً خاصاً الى مناوأة المذهب البروتستانتي بعد ما رسخ في البلاد فساء عملهم هذا ولايات بوهيميا فخلعت الامبراطور فرديناند خلف فرديناند المتقدم ذكرهُ وافضى ذلك الى حرب كسر فيها البوهيميون شرّ كسرة في معركة الجبل الابيض سنة ١٦٢٠ وأُبعد جميع نبلاء البلاد الى الخارج ووزع اربعة اخماس الاراضي على الاجانب الذين ملأوا المناصب في جيش الامبراطور وفر عشرات الالوف من البلاد وأُعيد المذهب الكاثوليكي اليها بالنار والسيف

وبقيت بوهيميا نحو مئتي سنة بعد معركة الجبل الابيض فاقدة شخصيتها كاملة وكاد التاريخ ينساها . وكانت حكومتها الذاتية في خلال تلك المدة تتذبذب شيئاً فشيئاً وآدابها تخمد وبذلك الحكومة النمسوية كل جهد لمحو اللغة البوهيمية فامرت اولاً بان تكون اللغة الجرمانية مساوية للبوهيمية في جميع دوائر الحكومة

والحاكم ثم جعلت اللغة الجرمانية لغة التعليم في جميع المدارس العليا وجامعة براغ . وبلغ من نجاح هذه السياسة سياسة جرمنة البلاد ان كثيرين من التشك كانوا في اواخر القرن الثامن عشر لا يستطيعون قراءة لغتهم الا اذا طبعت او كتبت بحروف جرمانية

روح الثورة

لكن الثورة الفرنسوية ايقظت التشك من سباتهم اسوة بسائر امم اوربا فحملت جيوش الثورة مبادىء الوطنية والدمقراطية الى جميع انحاء اوربا فبات من المستحيل بعد ذلك ابقاء الشعوب الخاضعة لغيرها لازمة جانب الهدوء والاستكانة . وكان تيقظ البوهيميين في بادىء امرهِ محصوراً في لغتهم وآدابهم لان النمسا قمعت بشدة في عهد مترنيخ كل سعي يراد بهِ تغيير نظام البلاد السياسي. وكانت نتيجة التنبه الادبي انهُ لما شبت ثورة سنة ١٨٤٨ وجدت بوهيميا مستعدة ومتحدة على طلب الحكم الذاتي فلم يسع امبراطور النمسا سوى التسليم. وفي ٨ ابريل سنة ١٨٤٨ اصدر ما يسمى « البراءة البوهيمية » وفيها يمنح بوهيميا حقوقها الوطنية ويعدها بالاستقلال السياسي الكامل . ولكنهُ لم يبرّ بوعده هذا فلما اخمد الجيش النمسوي ثورتها وجدت نفسها شرًّا مما كانت فمن جهة لم تنل الحكم الذاتي ومن جهة اخرى عقدت الحكومة النمسوية عزيمتها على اخماد النهضة الادبية بمصادرة جميع الصحف والكتب البوهيمية ومنع تألف الجمعيات حتى الادبية الصرفة . فعادت البلاد الى ما كانت عليهِ من الحكم المطلق والمركزية والجرمنة وبقي الحال فيها على هذا المنوال حتى سنة ١٨٦٦ حينما قهرت روسيا النمسا في معركة سادوى وطردتها من ارض المانيا

وتعلّم الامبراطور فرنسيس جوزف من معركة سادوى انهُ اذا شاء تضامّ اجزاء امبراطوريته المختلفة جنساً ولغة ودماً لم يكفهِ تأييد الجرمان من رعيتهِ بل لا غنى لهُ عن تأييد اعظم واوسع . وعليهِ غيّر لقب الامبراطورية سنة ١٨٦٧ الى الملكية المزدوجة Dual Monarchy وصار اسمها الرسمي « مملكة النمسا والمجر ». اما ما حدث حتى ادّى الى هذا التغيير فخلاصتهُ ان الجرمان والمجر وهم اقوى عناصر الامبراطورية عقدوا بعد خلاف طال امدهُ اتفاقاً خواهُ ان تكون النمسا والمجر حكومتين مستقلتين لهما ملك واحد ونظام واحد للرسوم الجركية

وجيش واحد ويبقى نظام المركزية معمولاً بهِ في كلتيهما . ويكون الجرمان في النمسا والمجر في هنغاريا ممتازين على سائر الرعية

فنهض التشك يحتجون على هذا الاتفاق المسمى بالالمانية اوسجليش (Ausgleich) فقابلتهم الحكومة باعلان الاحكام العرفية في بوهيميا واضطهادهم اضطهاداً شديداً . على انها لم تقوَ على اخماد حركتهم ولو لم يعمدوا الى المقاومة الفعلية فاضطرت ان تتساهل معهم المرة بعد المرة ولكنها لم تسلم معهم بان بوهيميا مساوية لهنغاريا من الوجهة السياسية وان كلتيهما انتخبتا فرديننند النمسوي ملكاً عليهما سنة ١٥٢٦ وان اتحادهما شخصي صرف يترك كلَّ قريق مستقلاً عن الآخر يحكم نفسهُ بنفسهِ ويدير زمام امورهِ على هواهُ وهذا ما لا يتحول التشك عنهُ . ولما كان اعظم مبدإٍ في بيان الحلفاء السياسي حقَّ كل امة في تعيين مصيرها السياسي قام التشك يقاتلون في جانب اعداء حكومتهم لا في جانبها هي

موارد بوهيميا

والذي يدري ما هي بوهيميا وما هي مصادرها ومواردها الطبيعية يعذر آل هبسبرج بتشديد قبضتهم عليها والقول ان الاتحاد بينها وبين النمسا اتحاد حقيقي لا شخصيٌّ كما يزعم التشك . فقد كانت بوهيميا منذ بدء علاقتها بالامبراطورية دعامتها الاقتصادية لانها في مقدمة بلدانها زراعة وصناعة وتجارة طيبة الاقليم يقطنها اقوام اذكياء بالطبع اشتهروا بالحراثة . والزراعة منذ القدم ونصف ارضها او اكثر من النصف حقول نضرة لا ينقصها شيءٌ من وسائل الحراثة الحديثة . وفي ارضها كلُّ معدن نافع ما عدا الملح . وتمكنت بمناجمها الغنية في الفحم والحديد من امتلاك ناصية الامبراطورية في الصناعة واصبحت من اهم المراكز الصناعية في اوربا . ومع الصناعة مشت التجارة جنباً الى جنب وساعد على ارتقائها مدّ سكك الحديد وحفر الترع واصلاح الطرق في جميع انحاء البلاد حتى بات فيها ثلث سكك الحديد التي في الامبراطورية كلها . وكان على اثر هذا التقدم الصناعي ان تحمّل التشك خمسة اثمان الضرائب في مملكة النمسا

ولم يقتصر تقدم بوهيميا على الجهة المادية بل تعداها الى الادبية ايضاً فان نسبة الاميين فيها الى الذين يعرفون القراءة والكتابة ٣ في المئة وهذا ما لا مثيل لهُ في سائر اجزاء الامبراطورية . ونظام مدارسها الابتدائية والثانوية فائق الجودة

في رأسهِ جامعتان شهيرتان في براغ الواحدة جرمانية والثانية تشكية. وهي متقدمة على سائر بلاد الامبراطورية في الآداب والموسيقى وسائر المرافق كلها تقريباً

السلوفاك

مرّ على السلوفاك الف سنة وهم فلاحون فقراء يمتهنهم اسيادهم المجر . وبلادهم واقعة حذاء الاسناد الجنوبية من جبال كربانيا وهي قليلة الخصب لا يصلح الاّ القليل منها للحرث والزرع. ومعظم السلوفاك فقراء مدقعون يعثو بينهم المرابون حتى ان الواحد ليقضي عمرهُ كلهُ ولا يوفي ما عليهِ من الديون . وكلما قام واحد بينهم يسعى لاصلاح قومهِ رأى من المجر اسياد البلاد سدّاً عاتياً في سبيلهِ لأن شعارهم ان يكون كلّ شيء مجرياً لا غير . وكانت صحف السلوفاك فيما مرّ تلفى وجمياتهم الادبية تحلّ لاوهى حجة ولا قل شبهة . ولا تنشىء الحكومة مدارس في بلادهم على حسابها وتقفل كلّ مدرسة ينشئها السلوفاك على حسابهم. فلا عجب والحالة هذه اذا بلغ الاميون في البلاد اكثر من النصف بناء على احصاء سنة ١٩٠٠. وبلغ من اضطهاد حكومة المجر اياهم انها لا تعطي شركة تجارية منهم رخصة خشية ان تكون هذه الشركة مشروعاً وطنياً يرمي الى السياسة . وقد دمثت طبائع الاستبداد وطول عهدهم بها اخلاقهم فصاروا اطوع لحكامهم من البنان. على انهم بقوا يتطلعون الى اخوانهم التشك رجاء ان ينقذوهم من هذا الاسر ويخلصوهم مما حاق بهم من الذل على طول الزمن

زعيم التشك سلوفاك

يعود الفضل في اعداد التشك سلوفاك للاتحاد والاستقلال الى نفر من الغيورين على وطنهم وفي طليعتهم الدكتور ماساريك وبنيس وستيفانيك وغيرهم. على ان الاول اشهرهم واعظمهم بلا خلاف فقد وقف عمرهُ كلهُ على تأييد مبدأ الحرية والوطنية يزرع بذور التربية الصالحة في صدور قومهِ وانعاشهم المعنوي حتى سمي بآخر مرقطي بوهيميا متوسلاً الى ذلك بحملهم على السير في اثر الامم الاخرى المتقدمة عليهم واقتباس انظمتها الراقية وخصوصاً بلاد الدمقراطيات الغربية

وقد عرف في اوربا كلها قبل الحرب بحملاتهِ الشديدة الراسخة على حكم المجر . ولطالما سعى الساعون في ايقاظ الفتنة على اليهود في المجر بنسبة امور لا طائل تحتها اليهم كذبح اولاد غير اليهود لامور تختصّ بالدين فكان هو

السبب الاكبر في دفع الشبهة عنهم وانقاذهم من المكايد التي كانت تدبر لهم

وفي سنة ١٩٠٩ حكمت محكمة اجرام على ٥٣ من اليوجوسلاف بالاعدام لثبوت تهمة الخيانة العظمى عليهم فبرهن ماريك بالبينة القاطعة ان الاوراق والمستندات التي بني الحكم عليها زورت على يد وزارة خارجية النمسا والمجر لاثارة الحرب على سربيا. فاثار ذلك حفيظة الحكومة عليه فلما نشبت الحرب العظمى لم يسعهُ المقام في بلاده ففرَّ منهُ الى مكان آخر لاستئناف السعي في تحريره من ربقة الغريب

وملأت الحرب قلوب مواطنيه روعاً وجزعاً فانهم دعوا لمقاتلة الامم التي احبوها والدفاع عن ظالميهم فابوا بتاتاً. نعم انهم كانوا ينتظمون في جيش حكومتهم ويوجهون الى الميادين المختلفة فيسيرون اليها عن طواعية في ظاهر الامر ولكنهم لم يكادوا يبلغونها حتى كانوا ينضمون الى صفوف اعداء حكومتهم. ويقدرون ان نحو ٢٠٠ الف منهم انضموا الى جيوش روسيا وسربيا وايطاليا. ورفض التشك في بلادهم شراء سندات الحرب التي اصدرتها خزينة الحكومة النمسوية وامدوا الاعداء بانباء كثيرة تنفعهم وتضرُّ بالحكومة النمسوية وبذلوا كلَّ مجهود في غلِّ يدها وقطع السبل عليها في مشروعاتها العسكرية. فقامت الحكومة تنتقم منهم اشدَّ انتقام حتى قدروا ان ٣٠ الفاً من التشك قتلوا منذ ابتداء الحرب ولا تزال السجون تغصُّ بالالوف منهم حتى الآن

ولكن الاضطهاد في الداخل افضى الى زيادة الجهد في الخارج فان مهاجري التشك في انكلترا وفرنسا وروسيا وخصوصاً اميركا الفوا جمعيات قوية لمداومة حرب الحرية بزعامة ماريك. ولما ظهرت الثورة الروسية كان الزعيم المذكور في اميركا فذهب الى روسيا ونظم من التشك سلوفاك وكانوا اسرى حرب فيها جيشاً خدم الحلفاء خدمة عظيمة قبل تضعضع الجيش الروسي ولا يزال حتى الآن رجاء الحلفاء الاعظم في روسيا

فكانت نتيجة هذه المساعي الحسان ان حكومات الحلفاء اعترفت باستقلال التشك سلوفاك. ومتى تم لهم الاستقلال والفمَّ اليهم جميع التشك سلوفاك اصبح عددهم تسعة ملايين ومساحة بلادهم ٥٠ الف ميل مربع فتكون بذلك اكبر من البرتوغال او هولندا او البلجيك او اسوج ونروج او البلقان